دراسة أنثرُوبُولوجيّة للكوفة

نعمة الله صفري فروشاني[1]

خلاصة البحث

إنَّ استخدام الدراسات التحليليّة للتاريخ - لا سيّما في مجال دراسات التاريخ لأهل البيت عليهم السلام - يعود بالنفع العظيم على الباحث المتحرّر، وتُظهر دراسات كهذه أنَّ العديد من الأحداث التاريخيّة المتعلّقة بتاريخ أهل البيت عليهم السلام لم تعتمد أبدًا على عاملٍ واحدٍ، وإنَّ الاكتفاء بعاملٍ منفردٍ معيّنٍ في هذا المجال، يُعتبر خطأً إستراتيجيًّا على المدى الطويل؛ فإنَّ معرفة المزيد عن الأحداث المتعلّقة بالأئمة الثلاثة الأوائل عليهم السلام، وخاصّة دراسة عاشوراء، سوف يمنح مزيدًا من العمق لمثل هذه الدراسات.

وأمّا ما تمّت دراسته في هذا المقال بالطريقة التاريخيّة، فهو توسيع الدراسة إلى سياقات مختلفة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وإداريّة وحتّى نفسيّة؛ بُغية اكتشاف أسباب وقوع عاشوراء، خاصّة مع التركيز على مدينة إستراتيجيّة مثل «الكوفة»، بجانب الاستفادة القصوى من المصادر ذات الصلة، ولا سيما المصادر التاريخيّة. فيمكن الاستنتاج أنَّ الاعتماد التامّ على محوريّة النصّ في الدراسات المتعلقة بتاريخ أهل البيت عليهم السلام وإهمال جوانب مختلفة من الخلفيّات المحيطة بالمسألة لم يساعد كثيرًا في اكتشاف أسباب وقوع عاشوراء والأحداث

١. قسم التأريخ، مجمع الإمام الخميني قدس سره، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، إصفهان، إيران. البريد الإلكتروني: Nsafari8@gmail.com.

المتشابهة، ولكنْ للتمعّن في هذه الأحداث المتعددة العوامل وفهمها بشكل أفضل نحتاج فعلًا إلى دراسات تحليلية للتاريخ.

المفردات الرئيسة: الأنثروبولوجيّة، الكوفة، عاشوراء، الإمام الحسين عليه السلام، التاريخ التحليليّ، معرفة الخلفيّة التاريخيّة.

مقدّمة

يمكن القول إنَّ واقعةَ عاشوراء العظيمة والمأساوية هو موضوع قد حَظِي بالنصيب الأوفر من بين مؤلّفات الشيعة وحتى الفِرَق الإسلاميّة الأُخرى لقرونٍ عدَّة، لكنّه لم يتناول سوى جزء صغير من هذه الأعمال والمؤلّفات، الأوضاعَ الاجتماعيةَ للعالم الإسلاميّ أثناءَ حدوث وقعة كربلاء بشكل عام، ومدينة الكوفة بشكلٍ خاصّ، في حين أنَّ هذه الدراسة يمكن أن تساعد على فهم أسباب ودوافع نهضة الإمام الحسين عليه السلام بشكلٍ أفضل، وكذلك أسباب فشلها الظاهريّ.

وهذا المقال هو جهدٌ متواضع نحو دراسة "أنثروبولوجيّةٍ" لمدينة الكوفة، والذي يتناول ضمن ثلاثة مباحث، دراسةً ديموغرافيّةً لسُكّان الكوفة والظروف التي كانت تحكمها، وثانيًا: النظام الإداريّ لمجتمع الكوفة، وثالثًا: النظام الماليّ الحاكم فيها قبل حركة الإمام الحسين عليه السلام وأثنائها، وفي كلٍّ من هذه الحالات يحاول الباحث التنويه إلى مدى تأثير القضيّة قيد البحث على النهضة الحسينيّة؛ تقدّمًا كان أو تثبّطًا.

فعلى أمل أن يقع موقع قبولٍ في عتبة سيد الشهداء عليه السلام المقدّسة.

المبحث الأوّل: سكّان الكوفة والظروف المحيطة بها

١- عدد سكان الكوفة أثناء قيام عاشوراء

لقد أُسّست الكوفة في العام السابع عشر للهجرة، في زمن الخليفة الثاني، على يد "سعد بن أبي وقاص"، كقاعدة عسكريّة لمتابعة الفتوحات الإسلاميّة داخل بلاد إيران قدر الإمكان،[١] وكتب "عمر بن الخطاب" إلى سعد أن اختطَّ موضع المسجد الجامع على عدّة مقاتلتكم، فخطّ على أربعين ألف إنسان،[٢] فيمكننا الاستنتاج أنّه كان في الكوفة

١ . الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ١٤٥/٣.

٢ . الحموي، ياقوت، معجم البلدان: ٤٩١/٤.

حوالي أربعين ألف جندي في بداية تأسيسها، ونظرًا إلى أنَّ العديد من هؤلاء الجنود كانت تصطحبهم زوجاتهم وأطفالهم، يمكننا الوصول إلى عدد ما يبلغ حوالي مئة ألف نسمة عند إحداثها، وهذا الرقم يبدو معقولًا، كما كتب الطبري، وهو يروي أحداث سنة (٢٢ ق)، بعد أن استشهد بجملةٍ عن عمر ذكر فيها العدد «مئة ألف» دون أيّ معدود، بقوله: «واختطَّت الكوفةُ حين اختطّت على مئة ألف مقاتل».[1]

فإذا قبلنا هذا الاستنتاج، يجب أن نعتبر أنَّ أهالي الكوفة في ذلك الحين كان أكثر من مئتي ألف شخص، وهو بالإضافة إلى استعصائه على العقل، فإنّه يتعارض أيضًا مع حجم المسجد آنذاك، فمن الأصحّ افتراض معدود (مئة ألف) في كلام عمر، (نفرًا) وليس مقاتلًا، حتّى ينسجم مع الواقع التاريخيّ.

وأمّا الكوفة، بعد تأسيسها وبسبب مناخها اللطيف وقربها من نهر الفرات وبلاد فارس والوضع الاقتصاديّ الجيّد الذي اكتسبته من الغنائم وفرض ضرائب على البلاد المفتوحة، فهي استقبلت سيلًا من المهاجرين من قبائل وجماعات مختلفة من أنحاء البلاد الإسلاميّة الشاسعة، واشتدّت هذه الهجرات خاصّة في عام (٣٦ هـ ق)، عندما جعل الإمام علي عليه السلام هذه المدينة عاصمة الدولة الإسلاميّة، حتى أنّه يُقدَّر عدد مقاتلة الكوفة في جيش الإمام علي عليه السلام في معركة صفّين (٣٧ هـ) قد بلغ (٦٥٠٠٠) مقاتلًا[2] ومع احتساب أسرهم والأشخاص الذين لم يشاركوا في الحرب، يمكن أن يبلغ بسهولة (١٥٠.٠٠٠) شخصًا، هذا ونحن قد تجاهلنا تقرير (المسعودي) عن جنود الإمام علي عليه السلام في معركة صفين المتكوّن من (٩٠.٠٠٠) أو (١٢٠.٠٠٠) مقاتلًا.[3]

وبعد صلح الإمام الحسن عليه السلام سنة (٤٠ هـ ق)، تحدّث بعض أصحاب الإمام عليه السلام عن

1 . تاريخ الطبري: ٢٤٣/٣.

2 . المصدر نفسه: ٤٩/٤.

٣ . المسعودي، علي بن حسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٣٨٥/٢.

وجود جيش قوامه (١٠٠) ألف جندي من الكوفة، احتجاجًا على موقفه عليه السلام.[١]

واعتبارًا من عام (٥٠ هق)، عندما تولى (زياد بن أبيه) إمارة الكوفة من قبل معاوية، نظرًا لكثرة الشيعة هناك، أراد كسر شوكتهم فأجلى عددًا كبيرًا منهم إلى الشام وخراسان وأماكن أُخرى، لدرجة يقال إنّه قد سفّر (٥٠٠٠٠) شخصًا فقط إلى خراسان.[٢]

وحينئذٍ انخفض عدد سكان الكوفة إلى (١٤٠) ألفًا، منهم (٦٠) ألف مقاتل و(٨٠) ألف عائلة،٣ فقام (زياد) في توسيع جامع الكوفة حيث تستوعب سعته (٦٠.٠٠٠) شخصًا.[٤]

وبعد موت معاوية عام (٦٠ ق)، كتب بعض الكوفيين رسائل إلى الإمام الحسين عليه السلام يتحدّثون فيها عن جيش قوامه (١٠٠) ألف جنديّ مستعدّ للقتال،[٥] ورغم أنّها تبالغ في استعداد الكوفيين للقتال، لكنّها تُظهر - على الأقل - عدد سكان الكوفة أثناء حركة الإمام الحسين عليه السلام.

وأمّا النتائج التي يمكن استخلاصها ممّا سبق في حركة الإمام الحسين عليه السلام، فهي كما يلي:

١- إنَّ العدد المذكور (١٢) ألفَ رسالةٍ موجّهةٍ للإمام الحسين عليه السلام[٦] وإن يبدو مبالغًا فيه جدًّا، إلّا أنّه أقلّ من نصف سكان الكوفة، وإن كان بعض هذه الرسائل قد كتبت بيد عدّة أشخاص أو مجموعات؛ لذلك لم يكتف الإمام الحسين عليه السلام بها وأرسل (مسلمًا) إلى الكوفة؛ ليحصل على المزيد من المعلومات.

٢- وقد ذكروا عددَ من بايع مسلمًا بن عقيل ما يتراوح بين (١٢) ألفًا و(٤٠) ألفًا،[٧] وأمّا في حديث منسوب للإمام الباقر عليه السلام فقد ذكر عدد المبايعين (٢٠) ألفًا.[٨]

---

١ . الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٨٥/١.

٢ . شريف القرشي، باقر، حياة الإمام الحسين بن علي: ١٧٨/٢ منقول من تاريخ الشعوب الإسلاميّة: ١٤٧/١

٣ . البلاذري، أبو الحسن، فتوح البلدان: ٣٤٥.

٤ . معجم البلدان: ٤٩١/٤.

٥ . تاريخ الطبري: ٤٩٤/٤؛ المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار: ٣٣٧/٤٤.

٦ . بحار الأنوار: ٣٣٤/٤٤.

٧ . المصدر نفسه: ٣٣٧.

٨ . المصدر نفسه: ٦٨.

فإن قبلنا هذا العدد، سنصل إلى نتيجة أنّ الذين قد بايعوه كانوا حوالي خُمس المقاتلين في الكوفة، ما يقودنا إلى مبرّر لعدم اتّخاذ إجراءٍ جادٍّ من جانب مسلم.

ومن الواضح جدًّا أنَّه في حال الإقدام الجادّ وتشكيل الحكومة من قبل مسلم، فإنَّ العديد من العناصر المحايدة وحتى المعارضة كانت ستنضمُّ إلى ثورته الفتية.

٣- والظاهر أنَّ عدد جيش عمر بن سعد (٣٠) ألفًا الوارد في رواية الإمام الصادق عليه السلام[١] يبدو معقولًا، لا سيّما بعد أمر ابن زياد بالنفير العام، وبالطبع هذا العدد لم يعد يبلغ نصف مجموع مقاتلي الكوفة، ومن هنا يمكن تبرير العدد الكبير لجيش "المختار الثقفي" الذي قُدّر بـ(٦٠) ألف نفر[٢] إذ إنَّ جنوده كانوا ممّن لم ينضمّوا إلى جيش "عمر بن سعد" في كربلاء.

٢- دراسة المجتمع الكوفي

وفيما يلي سنقوم بدراسة المجتمع الكوفي من ناحيتين: العِرقيّة والإيدولوجيّة:

أوّلًا: التركيبة العِرقيّة للمجتمع الكوفي

يمكن تقسيم المجتمع الكوفي من الناحية العرقيّة إلى قسمين هما: العرب، وغير العرب. فكان العرب الساكنون في الكوفة عبارة عن قبائل رحلت من شبه الجزيرة العربية نحو العراق - مع بداية الفتوح الإسلاميّة في إيران - بهدف المشاركة في الفتوح، وأخيرًا استقرّت في الكوفة والبصرة بعد نهاية الفتوح.

وكان هؤلاء العرب الذين قد شكّلوا نواة أهل الكوفة، ينتمون إلى قبيلتَي القحطان والعدنان، اللذَين كان يُشار إليهما باليمانيين والنزاريين، ومن بين (٢٠٠٠٠) دار تمّ بناؤها في بداية تأسيس الكوفة، خُصّصت (١٢٠٠٠) دارًا لليمانيين و(٨٠٠٠) دارًا للنزاريين.[٣]

---

١ . المصدر نفسه: ٤٥/٤.

٢ . الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داوود، الأخبار الطوال: ٣٠٥.

٣ . الزيدي، محمد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري: ٤٢.

وفي البداية، كان اليمانيون (اليمنيون) يميلون إلى أهل البيت^٨؛ لذلك صبّ معاوية جلّ اهتمامه عليهم وقرّبهم إلى نفسه.[١]

وكان هناك قسم آخر من العرب الساكنين في الكوفة يتألّفون من قبائل، مثل: بني تغلب؛[٢] حيث كانوا يقطنون العراق من بداية الإسلام، وكانت هذه القبائل في حالة حرب دائمة مع الإيرانيّين، وانضمّت القبائل المشار إليها إلى القبائل المسلمة مع بداية الفتوح الإسلاميّة وأعانتها في الفتوح، ثمّ سكن قسمٌ منها في المدن الإسلاميّة المؤسّسة حديثًا، وكانت العناصر غير العربية في الكوفة تتألّف من شرائح كالموالي والسريانيّين والأنباط.[٣]

أمّا الموالي فهم أولئك الذين قد عقدوا معاهدات مع مختلف القبائل العربيّة وخضعوا لما يصطلح عليه بـ(الولاء)، وكانوا يُعتبرون من حيث الحقوق كأعضاء تلك القبيلة.

فكان الموالي متألّفة من أعراق مختلفة، مثل: الفرس، والروم، والترك، وما إلى ذلك، وكان قد أطلق العرب على الجميع عنوان (العجم).

وكان أكبر مجموعة من الموالي في الكوفة تتشكّل من الإيرانيين، تسمّى (حمراء ديلم)، والحمراء هو الاسم الشائع الذي أطلقه العرب على الإيرانيين، وضمّت هذه المجموعة فيلقًا من (٤٠٠٠) إيراني، بقيادة شخص يدعى (ديلم)؛ حيث انضموا إلى الجيش الإسلاميّ بقيادة سعد بن أبي وقاص، وأبرموا ميثاق تعاونٍ معه.[٤]

ثم استقرّت هؤلاء لاحقًا في الكوفة وأدارت العديد من المهن والصناعات فيها،[٥] وفي بعض النصوص ذُكر عدد الموالي في عصر المختار، عام (٦٦ ق)، نحو (٢٠) ألف نسمة.[٦]

١ . جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: ٣٣٨/٤.
٢ . الحياة الاجتماعية: ٤٢.
٣ . حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٣٨/٢.
٤ . فتوح البلدان: ٢٧٩.
٥ . الجنابي، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية: ٤٢.
٦ . المصدر نفسه: ٢٦٠.

وكان نسبة نموّ عدد الموالي في الكوفة أكبر بكثير من العرب، بحيث أصبحت بعد بضع سنوات قليلة، نسبة الموالي من العرب واحد من خمسة،[١] ما أدّى إلى توجس معاوية خيفةً من هذا النموّ العظيم، وأمر زياد بإخراجهم من الكوفة، فأخرج زياد بعضهم إلى بلاد الشام، وبعضهم إلى البصرة، وبعضهم إلى إيران.[٢]

مع ذلك كان عدد الموالي في جيش المختار عام (٦٦ ق)، يفوق على مقاتلي العرب بعدّة مرات،[٣] ما يدلّ على كثرة هذه الجماعة في بداية حركة الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة.

وأمّا السريانيّون، فهم أناسٌ عاشوا قبل الفتوحات في الأديرة بقرب الحيرة، واعتنقوا المسيحيّة.[٤]

وأمّا الأنباط، والذين يعتبرهم البعض عربًا، فهم أولئك الذين عاشوا قبل الفتوحات في السهول والمناطق المحيطة بالعراق، وجاؤوا إلى الكوفة بعد بنائها، واشتغلوا فيها بالزراعة.[٥]

طبعًا لم تكن تشكّل هاتان المجموعتان الأخيرتان إلّا جزءًا صغيرًا من سكّان الكوفة.

ثانيًا: التركيبة الأيدولوجيّة للمجتمع الكوفي

فمن الناحية الأيديولوجيّة والعقديّة،[٦] يمكن تقسيم مجتمع الكوفة آنذاك إلى قسمين: مسلم وغير مسلم؛ حيث كان يشكّل القسم غير المسلم المسيحيّون العرب من بني تغلب، ومسيحيّو نجران، ومسيحيّو الأنباط، واليهود المبعدون من شبه الجزيرة العربيّة في عهد عمر، والمجوس الإيرانيّون،[٧] وقد كان هذا القسم يمثّل بشكل عامّ الأقلّية من مجموع سكّان الكوفة، أمّا الجزء المسلم في الكوفة، فكان يضمّ شيعة علي عليه السلام وأنصار الأمويّين والخوارج والمحايدين.

١ . تاريخ التمدن الإسلامي: ٣٧٠/٤.
٢ . فتوح البلدان: ٢٧٩.
٣ . تاريخ التمدن الإسلامي: ٣٧١/٤.
٤ . تخطيط مدينة الكوفة: ٢٦.
٥ . المصدر نفسه: ٤٣؛ حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٣٨/٢.
٦ . ونقصد بلفظة (الأيديولوجية) هاهنا، معناها العام بحيث تشمل الفكر السياسي أيضًا فضلًا عن العقيدة الدينيّة.
٧ . حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٤١/٢ فما بعدها.

ثمّ يمكن تقسيم الشيعة إلى قسمين: الزعماء، وعامّة الشيعة. أمّا زعماء الشيعة فهم سليمان بن صرد الخزاعي، ومسيّب بن نجبة الفرازي، ومسلم بن عوسجة، وحبيب بن مظاهر الأسدي، وأبو ثمامة الصائدي، وغيرهم من أصحاب الإمام عليه السلام الذين قاتلوا معه في صفّين وحروب أخرى، وكان هؤلاء الجماعة يعشقون آل بيت النبي (صلوات الله عليهم) بشدّة، وهُم من فتحوا باب المراسلات مع الإمام الحسين عليه السلام بعد موت معاوية.[١]

ومن النقاط الغامضة والسوداء لنهضة الكوفة هو غياب هؤلاء الشخصيّات، عشية السابع من ذي الحجة سنة (٦٠ ق)، حيث حاصر (مسلم) قصر (عبيد الله)، ثم انخذل فمضى على وجهه متلددًا في أزقّة الكوفة لا يدري أين يذهب.[٢]

فوردت وجوه في تبرير هذا الغياب، لعلّ أكثرها تفاؤلًا أنّهم قد انفضّوا من حوله بأمره؛ حفظًا لأنفسهم لغرض الانضمام إلى الإمام الحسين عليه السلام في المستقبل.[٣]

لكنَّ هذا التبرير يبدو غيرَ وجيهٍ بالنظر إلى الوضع المأساوي لممثّل الثورة في الكوفة، أي: مسلم بن عقيل (عليه الرحمة).

والنقطة الأكثر سوداويّة هي أنّه على الرغم من وجود بعض هؤلاء الأشخاص مثل حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وأبو ثمامة الصائدي في ساحة كربلاء، إلّا أنَّه لا أثرَ من سائر الأسماء الكبار مثل سليمان بن صرد الخزاعي ورفاعة بن شداد البجلي ومسيب بن نجبة الفرازي، كما لا نجد ولا نصادف نصًّا تاريخيًّا يدلّ على نيّتهم على الانضمام إلى الإمام الحسين عليه السلام، بل وإنّما توبتهم بعد حادثة كربلاء وتشكيل نهضة التوابين تدلّ بوضوح على عدم رغبتهم في الانضمام إلى حركة الإمام الحسين عليه السلام من أولها.

١ . تاريخ الطبري: ٤/٢٦١.

٢ . المصدر نفسه: ٢٩٤.

٣ . لاستزادة المعرفة راجع: محمد علي عابدين، الدوافع الذاتية لأنصار الحسين عليه السلام؛ محمد علي عابدين، زندگانی سفير حسين عليه السلام مسلم بن عقيل.

وأمّا عامّة الشيعة الذين قد شكّلوا جزءًا كبيرًا من أهل الكوفة، فرغم أنّهم كانوا يحبّون جدًّا آل بيت الوحي والعصمة عليهم السلام، لكنَّ وُلاةَ الكوفة كزياد بن أبيه وابنه عبيد الله قد خلقوا جوًّا مُكفهرًّا من الرُّعب والوحشة، فضلًا عن السياسات العامّة للأمويّين في اجتثاث الشيعة من المجتمع الإسلامي، فكان من الصعب أن يدخلوا في حركةٍ إلّا إذا تأكّدوا من إمكانيّة النصر، وربّما كان سبب مراسلاتهم وانضمامهم لحركة مسلم وقيام المختار أنّهم كانوا يرون الانتصار محتملًا جدًّا، وبالتالي ما إن شمّوا رائحة هزيمة مسلم حتى غادروا الساحة، ومع أنَّ عددًا لا بأس به منهم شاركوا لاحقًا في حركة التوّابين وقيام المختار، لكن ليس من الواضح أنّه كم من هؤلاء شاركوا في جيش عمر بن سعد وقاتلوا ضدّ إمامهم، ومن غير المرجح أن يكون عدد كبير منهم شاركوا في كربلاء؛ إذ إنَّ غالبيّة جيش الكوفة في كربلاء كانت تتشّكل من عناصر أخرى من المسلمين، ولا يخفى على القارئ أنّ مراسلة الإمام وحدها ليست دليلًا على كون الكاتب شيعيًّا.

وكانت نسبة كبيرة من أهل الكوفة تتشكّل من أنصار الأمويّين، أبرزهم عمرو بن حجاج الزبيدي، ويزيد بن حرث، وعمرو بن حريث، وعبد الله بن مسلم، وعمارة بن عقبة، وعمر بن سعد، ومسلم بن عمرو الباهلي،[1] هذا وكانت قد مرّت عشرون سنة على الحكم الأموي في الكوفة، حيث استطاعوا اكتساب قوّة كبيرة خلال تلكم الأعوام.

وهؤلاء هم الذين كتبوا رسالة إلى الشام وطلبوا من يزيد حلًّا للقضيّة، حيث شعروا بالتهديد من تقدّم حركة مسلم بن عقيل وضعف وفتور والي الكوفة النعمان بن بشير، وكان زعماء معظم القبائل وأصحاب النفوذ منتمين إلى هذا الحزب، وهذا الأمر بحدّ ذاته دفع الكثير من الناس إلى هذا الجانب.

وقد استفحل أمر الخوارج في الكوفة بعد تلقّيهم ضربةً موجعة في معركة النهروان، وذلك في عهد معاوية وعلى أثر سياسته غير الإسلاميّة، كما ثاروا عام (٤٣) للهجرة في

١ . المقرّم، عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين: ١٤٩؛ حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٤١/٣.

عهد حكم المغيرة بن شعبة بقيادة (المستورد بن عُلَّفَةَ)، ولكنّ ثورتهم باءت بالفشل، وكان لزياد بن أبيه دورٌ مهمٌّ في قمعهم بعد تولّيه إمارة الكوفة عام (٥٠) للهجرة، وبعد موت (زياد) بخمس سنوات، أي: عام (٥٣) للهجرة قاموا بثورة أُخرى سنة (٥٨) للهجرة بقيادة «حيّان بن ظبيان» لكن عمد «ابن زياد» بعد العهد له بولاية الكوفة إلى قمعهم أيضًا[١] ولذا لا نجد لهؤلاء الشرذمة دورًا كبيرًا في وقعة كربلاء.

ولعلّه يقال إنَّ الحصة الكبرى من أهل الكوفة كانت تتشكّل من اللامبالين والانتهازيين، الطائفة التي لم تكن تهتمّ إلّا بإشباع بطنها وشهوتها، وعندما رأى هؤلاء أنّ حركة مسلم بن عقيل توشك بالانتصار التحقوا به، ولكن مع ظهور بوادر الفشل سرعان ما تركوا الساحة وسبّبوا ضغطًا نفسيًّا كبيرًا على الداعمين الحقيقيّين للحركة، وبالتالي لعبوا دورًا كبيرًا في إفشال حركة مسلم بن عقيل، ثم إثر وعود ابن زياد ووعيده التحقوا بجيش الكوفة وحاربوا الإمام الحسين عليه السلام وقتلوه في النهاية، في حين لو انتصرت حركة مسلم، لكان هؤلاء الأشخاص أنفسهم غالبيّة مؤيدي ثورة مسلم الفتية، وهؤلاء هم الذين وصفهم فرزدق في لقائه مع الإمام الحسين عليه السلام: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك».[٢]

٣- التحليل النفسي لأهل الكوفة

يمكن بشكلٍ عامّ أن نذكر الخصائص النفسية لغالبيّة المجتمع الكوفي، والتي كان لها دورٌ في الفشل الظاهري لثورة الإمام الحسين عليه السلام كالتالي:

أوّلًا: انعدام التنظيم

كانت القبائل البدويّة الساكنة في الصحراء تشكّل النواة الرئيسة لمدينة الكوفة، وقد شاركت لأسباب مختلفة في الفتوحات الإسلاميّة، ثمّ اتّجهت من حياة البداوة والترحال

١ . تاريخ الطبري: ١٣٢/٤؛ ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي: ١٨٦/٢.

٢ . ابن مسكوية الرازي، أبو علي، تجارب الأمم **وتعاقب الهمم**: ٥٧/٢. وراجع: تذكرة الخواصّ: ٢٤٠؛ والأمالي للشجري: ١/ ١٦٦؛ والحدائق الورديّة: ١١٤/١.

إلى حياة الحضر والسكن في المدن، ولكنّهم مع ذلك لم يفقدوا طبيعتهم البدويّة، ومن صفات القاطنين في الصحراء، تمتّعهم بحرّية لا حدّ لها في الصحاري؛ ولذلك فقد عمدوا منذ البدء إلى التنازع مع أُمرائهم، بحيث ضاق بالخليفة الثاني ذرعًا منهم وهو يشتكي منهم قائلًا: «وأيُّ نائبٍ أعظم من مئة ألفٍ لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير».[1]

ويمكن القول: إنّ مثل هذا المجتمع لا يحتمل الأمير العادل والمتحرّر الفكر، فهذا المجتمع يستغلّ مثل هؤلاء الأمراء ويهبّ لمعارضتهم ولا يطيع أوامرهم، وهكذا نرى في مسار الكوفة التاريخي أنّهم كانوا يعارضون الأمراء والقادة سواء كانوا عادلين نحو علي بن أبي طالب عليه السلام وعمّار بن ياسر أم جائرين كزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد.

أجل! طوال تاريخ الكوفة حتى عام (٦١ هـ) لم نواجه سوى حالة واحدة كان فيها الكوفيون أكثر رضًا عن أميرهم وهو داهية من دهاة العرب المشاهير: (المغيرة بن شعبة)! هذا السياسي المخضرم، الذي ولّاه معاوية الكوفة عام (٤١ ق)، فلم يزل فيها إلى أن مات سنة (٥٠ ق)، حاول أن يتصرف على هذا النحو الأقل تنازعًا بين الناس والأحزاب المختلفة، فإذا قيل له: فلان شيعي أو معارض، أجاب: لقد قدّر الله الاختلاف بين الناس فيقضي بين عباده.[2]

وكان هذا السلوك هو الذي أرضى عنه عامّة الناس، سوى الخوارج حيث بايعوا (المستورد بن عُلَّفَةَ)، وثاروا ضدّه، فظفر بهم المغيرة وقمعت ثورتهم المزعومة.

أمّا (النعمان بن بشير) الذي تولّى حكم الكوفة عام (٥٩ ق)، فربما كان سيصبح أميرًا مناسبًا للكوفيين لو لم يتفاجئ بموت معاوية، الأمر الذي قلّب كلّ المعايير دفعة، وغيّر الظروف، وخلق حوافز أقوى للكوفيّين ما أدّى في النهاية إلى دعوتهم للإمام الحسين عليه السلام من خلال رسائل بعثوها إليه.

١ . تاريخ الطبري: ٢٤٣/٣.
٢ . تجارب الأمم: ١٥/٢.

ويمكن القول إنَّ كثرة حضور الصحابة والقُرّاء كان من العوامل التي عزّزت هذا المزاج؛ لأنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم مجتهدين وأصحاب رأي فوق الحكومة، وبالتالي كانوا يعارضون الأمراء مهما استطاعوا ولم يخشوا على حياتهم، ونحن نرى مثاله الواضح في معركة صفّين؛ حيث إنَّ عددًا كبيرًا من خوارج النهروان كانوا من القراء وحُفّاظ القرآن.[١]

ويصحّ القول إنَّ مثل هذا المجتمع لا يتحمّل أميرًا عادلًا وحرًّا، حيث يتعرض للإساءة، بل يُعارض ويخالَف دومًا وأمره غير مطاع، ونحن نشاهد نماذج هذه الإمارات في تعامل أهل الكوفة مع الإمام عليّ عليه السلام والأمير الذي يليق لهذا المجتمع هو أميرٌ مثل (زياد بن أبيه) يُجبرهم على الطاعة بالعنف والظلم.

وعلى عكس مجتمع الكوفة، كان مجتمع الشام شعبًا متحضّرًا وغير عربي وقد اعتادوا على التنظيم المنهجي لقرونٍ، وبالتالي كان لمعاوية أن يحكم مثل هذا المجتمع بسهولة.[٢]

ثانيًا: حبّ الدنيا

رغم أنّ الكثير من مسلمي صدر الإسلام شاركوا في الفتوحات الإسلامية بنوايا خالصة ومن أجل كسب مرضاة الخالق، ولكنّ الأشخاص والقبائل الذين كانوا يشاركون في هذه الحروب بهدف الحصول على الغنائم الحربيّة لم يكونوا بالقليلين، فلم يكونوا مستعدّين للتخلّي عن دنياهم بعد إقامتهم في الكوفة، وكانوا يتراجعون بمجرّد أن يشعروا بأنّ الخطر يهدّد دنياهم، وعلى العكس من ذلك، فإنّهم كانوا يدخلون فورًا في كلّ أمرٍ يدرّ عليهم الفوائد، والشاهد الصادق على ذلك مشاركة أهل الكوفة في معركتي الجمل وصفّين، ففي معركة الجمل حينما سار الإمام عليّ عليه السلام من المدينة باتّجاه العراق عام (٣٦) للهجرة لمواجهة المتمرّدين المتواجدين في البصرة، طلب المساعدة من الكوفيّين، ولكنّ الكوفيّين الذين كانوا يرون أنّ حكومة عليّ عليه السلام ما زالت فتيّة، وكانوا يشعرون

١ . مروج الذهب: ٤٠٥/٢.

٢ . زكي صفوت، أحمد، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: ٤٢٠/١ فما بعدها.

بالقلق إزاء مصير الحرب، خاصّة وأنّ جيش البصرة كان يتفوّق عددًا، فسعوا في التملّص من هذه الدعوة، وبعد الإعلام والتشجيع الواسع النطاق لم يشارك أخيرًا في هذه الحرب سوى اثني عشر ألفًا، أي حوالي (١٠) بالمئة من القادرين على القتال في الكوفة،[١] وبعد نهاية الحرب، كان من جملة اعتراضات نخبهم وخواصّهم، عدم تقسيم الغنائم من قبل عليّ عليه السلام.[٢]

وأمّا في معركة صفّين فقد أظهر أهل الكوفة رغبةً أكبر في المشاركة، بعد أن رأوا حكومة عليّ عليه السلام قد التأم شملها، وبعد أن كان يحدوهم أملٌ كبير في الانتصار، بحيث ذكرت المصادر أنّ عدد جنوده عليه السلام في هذه المعركة بلغ ما بين (٦٥) إلى (١٢٠) ألف مقاتل،[٣] وكان عدد الذين شاركوا فيها من غير أهل الكوفة قليلًا للغاية، ويمكن أن نبرّر كثرة مبايعي مسلم استنادًا إلى هذا المبدأ أيضًا، رغم أنّ الأشخاص المخلصين بينهم لم يكونوا يشكّلون سوى أقلّية.

فكان أهل الكوفة آنذاك يرون من جهةٍ أنّ حكومة الشام المركزيّة ابتُليت بالضعف بسبب موت معاوية ونزق يزيد، ولم يكونوا يرون من جهة أخرى أنّ (النعمان بن بشير) قادرٌ على مواجهة ثورةٍ عارمة؛ ولذلك فإنّ أهل الكوفة سرعان ما رحّبوا بتجمّع عدد من الشيعة المخلصين بقيادة (سليمان بن صرد الخزاعي) وعرض دعوة الإمام الحسين عليه السلام، وإقامة الحكومة في الكوفة من قبلهم؛ لأنّهم كانوا يرون أنّ الانتصار وإقامة الحكومة محتملان إلى حدٍّ كبير.

ولم يفقدوا الأمل بالانتصار حتّى بعد وصول عبيد الله إلى الكوفة؛ ولذلك فقد شارك عددٌ كبير منهم مع مسلم في محاصرة قصر عبيد الله، ولكنّهم سرعان ما خذلوا الثورة

١. تاريخ الطبري: ٥١٣/٣.
٢. المصدر نفسه: ٥٤٥.
٣. المصدر نفسه: ٥٩/٤؛ مروج الذهب: ٣٨٥/٢.

عندما شعروا بالخطر، وسلّموا مُسلمًا وهانيًا بيد عبيد الله! وقد اشتدّ هذا الإحساس بالخطر عندما انتشرت بين الناس شائعة تحرّك جيش الشام من قبل أنصار عبيد الله؛ حيث يمكن اعتبار سبب الخوف من جيش الشام تعلّق أهل الكوفة بالدنيا.[١]

ومن هنا ندرك عمق كلام الإمام الحسين عليه السلام؛ حيث قال عند نزوله في كربلاء:

الناس عبيد الدنيا والدين لَعِقٌ على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قَلَّ الديّانون.[٢]

ثالثًا: اتّباع العواطف

ومن خلال دراسة المراحل المختلفة من حياة الكوفة، يمكننا أن نلاحظ هذه الخصوصيّة بوضوحٍ فيها، ويمكن اعتبار السبب الرئيس لهذه الخصوصيّة وهو عدم ترسّخ الإيمان في قلوبهم، وبالطبع فإنّنا لا يمكن أن نتوقّع سلوكًا آخر من الأشخاص والقبائل الذين اعتنقوا الإسلام بعد أن رأوا قدرته وسطوته فخرجوا للحرب من أجل دنياهم، وربّما كان اشتهار أهل الكوفة بالغدر والخديعة وعدم الوفاء؛ حيث أدّى إلى ظهور أمثالٍ ذائعةٍ، نظير: (أغدر من كوفيّ)، أو (الكوفي لا يوفي) ناجمًا عن هذه الخصوصية المتمثّلة في اتّباعهم لأحاسيسهم وعواطفهم.

ويمكن القول إنَّ المختار كان من أنجح الأشخاص الذين استطاعوا استغلال أحاسيس الكوفيين بأحسن وجه، لكنّهم بمجرّد ما رأوا أن الظروف قد انقلبت ضدّه تركوه وحده؛ ليقع قتيلًا على يد مصعب ابن الزبير.[٣]

١ . تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

٢. محمود شريفي وآخرون (معهد تحقيقات باقرالعلوم التابعة لمنظمة الإعلام الإسلامي) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٧٣.

٣ . تاريخ الطبري: ٤/٥٥٨ فما بعدها.

رابعًا: خصائص أخرى

وقد ذكر بعض الكتاب المعاصرين الخصائص التالية لمجتمع الكوفة:

١- التناقض في السلوك. ٢- المكر. ٣- التمرّد على الولاة. ٤- الهروب عند مواجهة المشاكل. ٥- سوء الأخلاق. ٦- الجشع. ٧-التأثر بالدعاية.[١]

ويبدو أنّ الخصائص التي عددناها آنفًا يمكنها أن تفسّر عميقًا جميع هذه الخصائص السبع.

٤- أسباب مراسلة الكوفيين ودعوتهم للامام الحسينعليه السلام

بدأت مراسلات ودعوة الكوفيين للإمام الحسين عليه السلام لأوّل مرّة عام (٤٩) أو (٥٠ هـ ق)، أي بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام وبواسطة (جُعدة بن هُبيرة بن أبي وهب)،[٢] ثمّ توقفت المكاتبات بعد ما رفض الإمام الحسين عليه السلام الخروج احترامًا لعهد أخيه الحسن إلى معاوية.

ولكن بعد موت معاوية عام (٦٠ ق)، ورفضه عليه السلام بيعة يزيد، وخروجه من المدينة إلى مكة، عادت وتكثّفت المراسلات بينه وبين أهل الكوفة؛ حيث ورد أنّ عدد الكتب التي كان يتلقاها يوميًّا بلغت (٦٠٠) رسالة من مجموع (١٢) ألف رسالة،[٣] طبعًا يبدو أن التعبير بـ(١٢) ألف مُراسِل أكثر صحّة من (١٢) ألف رسالة؛ لأنّه قد يكون هناك أسماء كثيرة ضمن رسالةٍ واحدةٍ، وقد وضع الإمام الحسين عليه السلام كلّ هذه الرسائل أو بعضها في كيس وأخذها معه في رحلته إلى الكوفة.[٤]

وبشكل عام، يمكن سرد الأسباب التالية لدعوة الكوفيين:

١- كان من جملة من كتبوا إلى الإمام عليه السلام سليمان بن صرد الخزاعي، ورفاعة بن شداد البجليّ، ومسيّب بن نجبة، وغيرهم، من خواصّ شيعة الإمام علي عليه السلام وقد شهدوا الحكم

١ . حياه الإمام الحسين عليه السلام: ٤٢٠/٢ فما بعدها.

٢ . الأخبار الطوال: ٢٢١.

٣ . بحار الأنوار: ٣٣٤/٤٤.

٤ . تجارب الأمم: ٥٩/٢.

العادل له، وتضايقوا من السلطة الأمويّة خلال عشرين سنة من الجور والقمع، فكانوا يبحثون عن أدنى فرصة للثورة ضدّ الأمويين، وشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام ورفضه مبايعة يزيد كان أفضل فرصةٍ لهم.

٢- كانت الكوفة تعتبر أهم مدن الدولة الإسلاميّة في عهد الإمام علي عليه السلام؛ لأنّها العاصمة الرسميّة للدولة الإسلاميّة، وكانت الشام حينئذٍ المنافسة الوحيدة لها، حيث كان معاوية يحكمها، ولكن بما أنّ حكمه كان غير مشروع، فكانت الكوفة هي الفائزة في هذه المنافسة، فمن الواضح أنَّ لقب العاصمة، بالإضافة إلى أهمّيّتها السياسيّة، جلبت لسكانها منافع اجتماعيّة واقتصاديّة، لكن بعد تسلّط معاوية على مقدّرات الدولة الإسلاميّة وبسبب حقده وكراهيّته للكوفة، تحوّلت هذه المدينة إلى مدينة عاديّة.

فلمّا مات معاوية، تذكّر الناس الأيام الخالية لها إذ كانت عاصمة البلاد، التي لم تقدَّر قيمتها، فحان أوان استعادة عظمتها الضائعة؛ وهكذا يمكننا تعليل أسباب كتابة بعض الرسائل، وليس جميعها.

٣ – لقد دبَّ شوقٌ وهياجٌ زائدين عن الوصف في الكوفة مع انطلاق المراسلات، وبدأت جماعاتٌ كثيرة تراسل الإمام تحت تأثير هذه الظروف.

٤ – إنّ بعض الزعماء والقبائل من أصحاب النفوذ مثل شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر ويزيد بن حارث وقرة بن قيس وعمرو بن حجاج الزبيدي ومحمد بن عمير بن عطارد[1] في زمرة من لم يكن بينهم وبين آل البيت عليهم السلام مودّة، لكن لكيلا يتأخّروا عن هذا الركب، ويحافظوا على نفوذهم وزعامتهم في الحكومة التي ستشكّلها الإمام الحسين عليه السلام قريبًا في الكوفة، قاموا بإرسال أرهف

١ . الأخبار الطوال: ٢٢٩.

الرسائل العاطفيّة له، ولكن بمجرّد أن انقلبت الصفحة، أصبحوا يتصدّون لأخطر المناصب في جيش عمر بن سعد، حيث خاطبهم الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء قائلًا:

يا شَبَثُ بْنُ ربْعي، يا حَجّارُ بْنُ أبْجَرِ، يا قَيْسُ بْنُ الأشْعَث، يا يَزيدُ بْنُ الحارِثِ، ألَمْ تَكْتُبُوا إليَّ أنْ أيْنَعَتْ الثِمارُ واخْضَرَّ الجَنابُ، وَإنّما تَقْدِمُ عَلَى جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدَةٍ؟[1]

المبحث الثاني: النظام الإداريّ للمجتمع الكوفيّ

كانت أهمّ عناصر المنظومة الإداريّة للكوفة عبارة عن:

١. الوالي. ٢. رؤوس الأرباع. ٣. العرفاء. ٤. المناكب.

وفيما يلي سنقدّم لمحةً عامّة عن كلّ عنصرٍ من هذه العناصر:

أوّلًا: الوالي

يمثّل "الوالي" أهمّ مسؤول تنفيذي في الكوفة؛ حيث كان يعيّن بشكلٍ مباشر من جانب رئيس الحكومة المركزيّة، وتُوكَل إليه إدارة أُمور الكوفة وتوابعها.

وأمّا توابع الكوفة، فتعني المدن الإيرانيّة الكبرى التي فتحها جيش الكوفة وكانت إدارتها بيد أمير الكوفة، كما كانت معظم عوائدها تنفق على الكوفة.

وفيما يلي أسماء بعض هذه المدن:

قزوين، وزنجان، وطبرستان، وأذربيجان، والري، وكابل، وسيستان، والأنبار،[2] وحكّام هذه المدن عادةً ما يتمّ نصبهم من قبل أمير الكوفة، كما ورد أنَّ عبيد الله بن زياد ولّى عمرَ بن سعد الريَّ، ثم ندم واشترط عليه أن يقتل الحسين أوّلًا.

وبشكل عامّ، فإنَّ مهام وصلاحيّات والي الكوفة كانت كالآتي:

١. تاريخ الطبري: ٣٤٣/٤.

٢. عمر فوزي، فاروق، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية: ٢١؛ الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة: ص ٢٢١ فما بعدها.

١) مسؤوليّة القيادة العامّة للقوات وتنظيم القوّات داخل الكوفة وخارجها لمتابعة الفتوحات.
٢) جباية الضرائب والزكاة.
٣) مسؤوليّة القضاء أو نصب قاضٍ، لكن في عهد عُمر، كان الخليفة ينصب القضاة بالذات.
٤) التمهيد لسفر الحج.[١]

إنَّ الولاة الذين تولّوا إمارة الكوفة من الأمويين لمدّة عشرين عامًا، خلال فترة ما بين (٤١) و(٦١) هـ‍ق، هم عبارة عن:

١) المغيرة بن شعبة: من عام (٤١) إلى عام (٥٠) هـ.
٢) زياد بن أبيه: من عام (٥٠) إلى عام (٥٣) هـ.
٣) عبد الله بن خالد بن أسيد: من عام (٥٣) إلى عام (٥٦) هـ.
٤) ضحاك بن قيس الفهري: من عام (٥٦) إلى عام (٥٨) هـ.
٥) عبد الرحمن بن أم حكم: ابن أخت معاوية، حكم الكوفة عام (٥٨) ق، ولكن سرعان ما طرده أهل الكوفة لسوء معاملته الناس.
٦) النعمان بن بشير الأنصاري: سنة (٥٩) هـ.
٧) عبيد الله بن زياد: تولى الإمارة من سنة (٦٠) هـ، حتى موت يزيد سنة (٦٤) هـ.[٢]

وأمّا الولاة الذين يقعون مورد بحثنا فهم: المغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير، وزياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد.

وكان المغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير كلاهما من صحابة النبيﷺ، وكانت شخصيتهما معروفة لدى المسلمين، وفي الحقيقة كان معاوية هو من استغلّ مكانتهما في حكم الكوفة؛ ومن هنا تصرّف هذان الشخصان بشكلٍ مستقلٍّ إلى حدٍّ كبيرٍ، وعلى الأقلّ لم يريقا دماء الأبرياء من الشيعة على مرأى الناس. وبعبارة أخرى، لم يكونا

١ . البراقي النجفي، السيد حسين بن أحمد، تاريخ الكوفة: ٢٤٢.
٢ . راجع: تاريخ الطبري: ج ٤، ذيل حوادث السنين المذكورة في النص.

مستعدَّين لإفساد آخرتهما بالكامل من أجل دنيا معاوية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانا شيخين متقدّمين في السنّ، فيسعيان إلى الهدوء وراحة البال أكثر من أيّ شيء آخر.

وعلى عكسهما، كان زياد وابنه عبيد الله شخصين عدوانيَّين، ومغامرَين، وطموحَين، ولأنّهما يفتقران إلى النسب والشخصيّة، فكانا يعانيان من عقدة النقص في محاولةٍ للانتقام من كلّ الناس:

وكان زياد في عهد الإمام علي عليه السلام كاتبًا وخليفةً لعامل البصرة (عبد الله بن عباس)، ثم وُلّي على ولاية فارس، وحتّى بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام عندما مال العديد من أصحابه إلى معاوية، قاوم زياد مقابل معاوية مرّة أخرى، لكن استطاع معاوية بوصفه خبيرًا في علم النفس، أن يجذبه إلى نفسه بالخداع.

وقد أسدى له معاوية أعظم خدمة؛ إذ منحه نسبته المفقودة، ولقّبه بـ(زياد بن أبي سفيان)؛ لأنَّ زيادًا كان ابن (غير شرعيّ) لسمية وأبي سفيان في عصر الجاهليّة، ثم منحه إمارة البصرة، وبعد موت المغيرة، ضمّ إليها ولاية الكوفة أيضًا.[1]

وفي المقابل، قدَّم (زياد) الكثير من خدمات حسّاسة للأمويّين، من قلع الشيعة وقمعهم في الكوفة بحيث لم يكن يجرؤ أحد أن يصرّح بأنّه شيعي.

وفي الواقع كانت ولاية الكوفة والبصرة - حينئذٍ - تعني الهيمنة على كلّ بلاد إيران والبحرين وعمان وجزء من أفغانستان؛[2] لأنّ كلّ هذه البلدان قد فُتحت بيد مقاتلة هاتين المدينتين، أي: البصرة والكوفة.

وقد أفرط زياد في إسداء الخدمة لمعاوية لدرجة أنّه قد أرسل إليها رسالة يقول فيها:

يا أمير المؤمنين، قد ضبطتُ لك العراق (البصرة والكوفة) بشِمالي، وفرغت يميني لطاعتك، فولني الحجاز (مكة والمدينة).[3]

١ . تاريخ الطبري: ١٢٨/٤ فما بعدها.
٢ . تخطيط مدينة الكوفة: ٦٢.
٣ . تاريخ الطبري: ٢١٥/٤.

أمّا عبيد الله بن زياد، فلم تكن تربطه علاقة جيّدة بيزيد، فأراد الأخير إقالته من إمارة البصرة،[١] لكن بعد ظهور ثورة (مسلم) في الكوفة وما شهد من عجز النعمان بن بشير في تولي الأمور، فبالإضافة إلى البصرة منحه إمارة الكوفة أيضًا باقتراح من قبل مستشاره (سير جون النصراني)، ففي مقابل هذه الخدمة العظيمة التي تفاجئت بها عبيد الله، بدأ بقتل الشيعة في الكوفة وقمعهم، بحيث ورد أنّه قد سجن حوالي (١٢) ألف شيعيّ في الكوفة،[٢] ونجح أخيرًا في قمع الثورة في الكوفة، بل وكذلك حشد القوات لقتال الإمام الحسين عليه السلام وحدوث تلك الجرائم ضد آل بيت النبي (صلوات الله عليهم أجمعين).

ثانيًا: رؤوس الأرباع

ممّا يجدر ذكره أنّ القبائل المختلفة التي كانت تشارك في الفتوح كانت تدار قبل تأسيس مدينة الكوفة تحت نظام (الأعشار)، ومعنى ذلك أن (سعيد بن أبي وقاص) قد قسّم جيشه إلى عشرة أعشار واختار رأسًا وقائدًا لكلّ (عُشر)، وقد شاركت في كلّ منها قبيلتان أو أكثر أو عشائر من قبائل مختلفة.

وبعد توطّن جيش سعد مدينة الكوفة أُسّس (نظام الأسباع) بدلًا من (نظام الأعشار) بأمر الخليفة الثاني، [واستمرّ هذا النظام حتّى عهد إمارة "زياد"]، وبالتّالي دعا علماء الأنساب العرب إلى جمع القبائل والعشائر القريبة ضمن مجموعةٍ واحدةٍ، فقسّموا جميع سكان الكوفة العرب إلى سبعة أسباع، ثم عيّنوا رأسًا لكلّ (سُبع).

وكان رؤوس الأسباع في زمن السِّلم، يحكمون القبائل أو العشائر الواقعة على مسؤوليتهم، بحيث يستلمون (العطاءات) والحقوق الماليّة للقبائل من (الوالي) ويقسّمونها بينهم، وفي حال حدوث نزاع بين الأفراد يقومون بحَلّه وكانوا مسؤولين عن جميع الأنشطة السياسيّة للمواطنين أمام الحكومة، وبالتالي يحاولون الحفاظ على السلام ضمن مسؤوليّاتهم

١ . المصدر نفسه: ٢٥٨.

٢ . حياه الإمام الحسين×: ٤١٦/٢.

قدر الإمكان؛ حتّى لا يثيروا استياء الحكومة ولا يوفّروا لها أسبابًا لعزلهم.

وكانت قيادة هذه القبائل والعشائر في وقت الحرب أيضًا من مسؤوليّة رؤوس الأسباع، كما ذكره المؤرّخون في معركة صفين.

وقد أقرّ الإمام علي عليه السلام خلال فترة حكمه نظامَ الأسباع وبه حكم الكوفة، ولم يُقِل سوى بعض القادة السابقين ونصب مكانهم قادة جددًا.

لكن عندما عُيّن (زيادُ بن أبيه) عام (٥٠) للهجرة أميرًا على الكوفة، قام بحلّ نظام الأسباع واستبداله بنظام الأرباع الذي استمرّ طوال حكم الأمويّين بهدف السيطرة الأكثر على هذه المدينة،[١] كما أنّه كان قد استبدل سلفا (نظام الأخماس) بنظام الأسباع في البصرة.[٢]

وفي نظام الأرباع تمّ تقسيم جميع قبائل الكوفة إلى أربعة أرباع: رُبع أهل المدينة، وربع تميم وهمدان، وربع ربيعة وكندة، وربع المذحج والأسد.

وكان الرؤساء الذين اختارهم زياد للأرباع هم بالترتيب كالتالي: عمرو بن حريث، خالد بن عرفطة، قيس بن الوليد وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري.[٣]

وقد استعان مسلم بن عقيل بدوره بهذا النظام أيضًا عند القيام بنهضته وثورته، حين نظّم أفراد كلّ ربع في الربع نفسه، واختار هو نفسه رئيسًا للربع غير الرئيس المنصوب من قبل الحكومة، وتطالعنا خلال ثورة مسلم في الكوفة - وبعد اعتقال هاني ومحاصرة القصر - أسماء رؤساء الأرباع المعيّنين من جانبه وهم: مسلم بن عوسجة الأسدي رئيس ربع مذحج وأسد، عبيد الله بن عمر بن عزيز الكندي رئيس ربع كندة وربيعة، عبّاس بن جعدة الجدلي

١ . راجع: تاريخ الطبري: ١٥١/٣؛ الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة: ٤٨؛ كوفه، پيدايش شهر إسلامى: ٢٦٢ فما بعدها.

٢ . جاسم الجنابي، خالد، تنظيمات جيش العربي الإسلامي في العصر الأموي: ٢٢٣.

٣ . تاريخ الطبري: ١٩٩/٤.

رئيس ربع أهل المدينة، وأبو ثمامة الصائدي رئيس ربع تميم وهمدان.[١]

ولم يكن هاني بن عروة يتولّى رئاسة ربع كندة وربيعة من جانب الحكومة، ولكنّه كان يتمتّع بالاحترام الكبير بين أهالي هذا الربع الذي كان أكثر أرباع الكوفة سكّانًا، وبلغ هذا الاحترام درجةً بحيث يقال: إنّه إذا طلب المساعدة هبّ ثلاثون ألف سيف لنجدته،[٢] ولكنّ ابن زياد استطاع بسياساته واستغلال عمرو بن الحجّاج الزبيدي المنافس لـ«هاني» أن يخفّض هذا التأثير إلى الحدّ الأدنى، وأن يقتله في النهاية دون أن يبدي الربع أيّ تحرك !

وقد اتّخذ جيش عمر بن سعد أيضًا في كربلاء نظام الأرباع، حينئذ كان رأس ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير بن سليم الأزدي، وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الحنفي رأس ربع المذحج، وقيس بن أشعث بن قيس رأس ربع ربيعة وكندة، وحر بن يزيد الرياحي رأس ربع تميم وهمدان، وقد خاض الجميع باستثناء الأخير في المعركة ضدّ الإمام الحسين عليه السلام.[٣]

ثالثًا: العُرفاء

العرفاء جمع عريف، والعريف يمثّل منصبًا في القبيلة، وهو أن يتولّى رئاسة عدد من أفراد القبيلة ورعاية شؤونهم، ويأخذ على عاتقه مسؤوليّة أعمال أولئك الأشخاص أمام الحكومة، ويطلق على المسؤوليّة التي يقوم بها العريف وعدد الأشخاص الخاضعين لإشرافه عنوان (العرافة).[٤]

وقد كان هذا المنصب معروفًا بين قبائل العرب في العصر الجاهلي، وهو في

١ . المصدر نفسه: ٢٧٥.
٢ . تاريخ الكوفة: ٢٩٧.
٣ . تاريخ الطبري: ٤/٢٨٥.
٤ . ابن منظور، لسان العرب: ٩/١٥٤.

الناحية الإداريّة أدنى من رئاسة القبيلة بدرجةٍ أو درجتين.[١]

لكن بعد تأسيس نظام الأسباع عام (١٧) للهجرة، صار نظام العرفاء بشكلٍ آخر، وذلك بأن جُعل المعيار في عدد الأشخاص الخاضعين لإشراف كلّ عريف، هو أن يكون عطاؤهم وحقوقهم هم ونساؤهم وأولادهم مئة ألف درهم.[٢]

ولذلك فقد كان عدد أفراد (العرافات) المختلفة متباينًا؛ لأنّ النظام الذي كان عمر بن الخطّاب قد أخذ به لدفع عطاءات المقاتلين لم يكن قائمًا على المساواة، بل على أساس فضائل الأشخاص وخصوصيّاتهم، كأن يكونوا صحابيّين ومشاركين في غزوات النبي الأعظمﷺ أو مشاركين في الفتوح، وغير ذلك؛[٣] وبذلك كانت (العرافات) المختلفة تضمّ من عشرين إلى ستّين مقاتلًا بالإضافة إلى نسائهم وأولادهم .

وكانت مهمّة العرفاء في ذلك الوقت تتمثّل في أنّهم كانوا يستلمون عطاءات وحقوق الأفراد الخاضعين لإشرافهم من أمراء الأسباع ويسلّمونها إليهم، وكانوا يستنفرون أفرادهم عند الحرب، ويرفعون أحيانًا تقارير بأسماء المتخلّفين عن الحرب إلى الوالي، أو إلى أمراء الأسباع، واكتسب العرفاء أهمّية أكبر عندما توطّن الجنود غير المتحضّرين في المدن واستقرّوا في الكوفة، فقد أُوكلت إليهم مسؤوليّة إقرار الأمن في نطاق الأفراد المذكورين بالإضافة إلى المسؤوليّات السابقة، وأعدّوا دفاتر خاصّة سجّلوا فيها أسماء المقاتلين ونسائهم وأولادهم ومواليهم، وكانت تسجّل أيضًا أسماء المولودين حديثًا وسنة ولادتهم، كما كان يتمّ محو أسماء الأشخاص المتوفّين، وبذلك فقد كانوا يحيطون علمًا بأفرادهم. ويبدو أنّ تعيين وعزل العرفاء كانا يتمّان بواسطة الوالي؛ ذلك لأنّهم كانوا

١ . تاريخ التمدن الإسلامي: ١٧٦/١.

٢ . تاريخ الطبري: ١٥٢/٣.

٣ . لمعرفة المزيد حول نظام العطاء للخليفة عمر انظر: تاريخ الطبري: ١٠٨/٣.

مسؤولين أمام الوالي تجاه أفراد العرافة.[١] وكان دور العرفاء وأهميّتهم يتضاعفان عند حدوث الاضطرابات في المدن؛ ذلك لأنّهم كانوا مسؤولين عن إقرار النظام في عرافتهم، وبالطبع فإنّ الحكومة المركزية إذا كانت قويّة فإنّها كانت تطلب منهم أن يرفعوا تقارير بأسماء الأشخاص المتمرّدين.[٢]

ومن بين ولاة الكوفة، استغلَّ زياد وابنه عبيد الله هذا النظام أكثر من غيرهما لقمع ثورات الشيعة والخوارج وسائر المعارضين لغرض ما يسمّى باستقرار النظام، فعلى سبيل المثال كتب المؤرّخون حول أول خطوةٍ تنفيذيّةٍ لعبيد الله بن زياد بعد دخوله الكوفة: [كما أورد الطبري في تاريخه]:

> **أَخَذَ [ابنُ زِيادٍ] العُرَفاءَ وَالنّاسَ أخذًا شَديدًا، فَقالَ: اُكتُبوا إلَيَّ [أسماء] الغُرَباءَ، ومَن فيكُم مِن طِلبَةِ أميرِ المُؤمِنينَ، ومَن فيكُم مِنَ الحَروريَّةِ وأهلِ الرَّيبِ، الَّذينَ رَأيُهُمُ الخِلافُ وَالشِّقاقُ، فَمَن كَتَبَهُم لَنا فَبَريءٌ، ومَن لَم يَكتُب لَنا أحَدًا فَيَضمَنُ لَنا ما في عَرافَتِهِ ألّا يُخالِفَنا مِنهُم مُخالِفٌ، ولا يَبغي عَلَينا مِنهُم باغٍ، فَمَن لَم يَفعَل بَرِئَت مِنهُ الذِّمَّةُ، وحَلالٌ لَنا مالُهُ وسَفكُ دَمِه. وأيُّما عَريفٍ وُجِدَ في عَرافَتِهِ مِن بُغيَةِ أميرِ المُؤمِنينَ أحَدٌ لَم يَرفَعهُ إلَينا، صُلِبَ عَلى بابِ دارِهِ، وأُلقِيَت تِلكَ العَرافَةُ مِنَ العَطاء، وسُيِّرَ إلى مَوضِعٍ بِعُمانَ الزّارَةِ.**[٣]

وكان هذا العمل الذي قام به عبيد الله مؤثّرًا للغاية في استخدام العرفاء؛ حيث يعتبر من أهم أسباب فشل ثورة الكوفة.

رابعًا: المناكب

كانت المناكب - وهي جمع منكب - أحد المناصب القائمة بين القبائل. وكما يبدو من بعض النصوص أنّ هذا المنصب كان فوق العرفاء؛ إذ يشرف كلّ منكب

١ . تنظيمات الجيش العربي الإسلامي: ٢٢٣؛ الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الكوفة: ٤٩ فما بعدها.
٢ . المصدر نفسه.
٣ . تاريخ الطبري، ٢٦٧/٤.

على خمسة عرفاء،[١] كما كان هذا المنصب متداولًا في عصر الجاهليّة.

وقد أفادت بعض النصوص أنَّ ابن زياد هو الذي كان قد استحدث هذا المنصب للإشراف على عمل (العرفاء) والسيطرة عليه،[٢] ويعتقد بعضٌ أيضًا أنّه على الرغم من أنّ هذا المنصب تأسّس منذ فترة طويلة، إلّا أنّه كان أدنى من العريف وكان يعتبر مساعدًا له.[٣]

وعلى كلّ حال، إن قلنا بأيّ من الآراء السابقة، فإنّ القدر المتيقن هو أنّ هذا المنصب كان موجودًا في سنة (٦٠) للهجرة أثناء قيام مسلم بن عقيل، ولكنّنا لم نواجه نصًّا تاريخيًّا يذكره في هذا العام ويشير إلى دوره عند الأحداث.

المبحث الثالث: النظام الاقتصاديّ الحاكم للكوفة

وفيما يلي سنقوم بدراسة مصادر ماليّة للمجتمع الكوفي من ناحيتين: مصادر دخل الدولة، ومصادر دخل الشعب:

الأولى: مصادر دخل الدولة

كانت الموارد الماليّة بيد والي الكوفة في ذلك الوقت كما يلي:

١- الخَراج

كان الحكم الأولي للبلاد المفتوحة خلال الفتوحات أن تُقسَّم بين مقاتلة جيش الإسلام، لكنَّ الخليفة عُمَر، من أجل الحفاظ على هذه الثروة للأجيال في المستقبل والحفاظ على روح القتال في صفوف المجاهدين، وبعد التشاور مع الصحابة ومنهم الإمام علي عليه السلام، لم يقسّم هذه الأراضي، بل قرّر أن يبقيها في أيدي سكّانها، لكنّهم بدلًا من ذلك أن يدفعوا ضريبة معيّنة سمي بـ(الخَراج) كلّ عام، ويُرسَل خراج كلّ مدينة

١ . تاريخ التمدن الإسلامي، ١٧٦/١.

٢ . تنظيمات الجيش العربي الإسلامي، ٢٢٣ منقول من الأوائل لأبي هلال العسكري.

٣ . الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، ٥٤ منقول من العقد الفريد، ٨/٥.

مفتوحة إلى المدينة الفاتحة لها؛[١] وبهذا الوصف فإنَّ خراج بلاد مثل أذربيجان، وجرجان، وكابل، وسيستان، والأنبار...، التي فتحتها الكوفة كان يرسل إليها، ويودع في خزانة تسمّى (بيت مال الكوفة)، وبعد أن يصرف منها حاجات المدينة وبعض العطاءات يرسل الفائض إلى الإدارة الماليّة بالعاصمة.[٢]

كما أنَّ الإمام علي عليه السلام بعد وصوله إلى الخلافة، أكّد قرار عمر وثبّت نظام الخراج وعدم تقسيم البلاد المفتوحة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخراج كان المصدر الرئيس لدخل الحكومة.

٢- الجزية

كانت الجزية ضريبة ماليّة يدفعها غير المسلمين في المدن الإسلاميّة، بما في ذلك المجوس واليهود والمسيحيين، للحكومة سنويًّا وحسب أفراد العائلة، وفي ذلك الوقت كان الأغنياء يدفعون عادة (٤٨) درهمًا، والطبقة الوسطى (٢٤) درهمًا، والطبقة الدنيا (١٢) درهمًا في السنة.[٣]

ومع دخول العديد من أهل الذمّة إلى الإسلام، انخفض دخل الحكومة من هذا المصدر، ولكن للتعويض عن هذا النقص، أمر معاوية خلال فترة حكمه أنَّ الإيرانيين الذين يعيشون في العراق، عليهم تقديم هدايا للحكومة كلّ عام بداية الربيع والخريف حيث يحتفلون بعيديهما النيروز ومهرغان وفقًا لعادات ما قبل الإسلام؛ وبهذه الطريقة تدفّق (١٠) ملايين درهم على الخزانة العراقية كلّ عام.[٤]

١ . تنظيمات الجيش العربي الإسلامي: ٨٦ فما بعدها.
٢ . الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة: ٢١٩.
٣ . المصدر نفسه.
٤ . المصدر نفسه، ٢٢٢.

٣- الغنائم

كانت الفتوحات داخل إيران والدول المجاورة لها خلال الفترة المذكورة لا تزال جارية؛ وبذلك يتمّ دفع خُمس الغنائم إلى بيت المال، بالإضافة إلى ممتلكات الملوك وقادة العدو المعروفة بـ(الصوافي)، التي تنضمّ إلى خزانة الدولة؛ حيث بلغ دخل الحكومة من صوافي العراق في عهد معاوية (٥٠) مليون درهم في السنة.[١]

٤- المكوس

بدأ تحصيل المكوس والرسوم من التجار الذين ينقلون البضائع إلى الكوفة في عهد الخليفة الثاني؛ حيث يقبض عُشر مال التجارة من الكفار غير أهل الذمّة، والعُشر من الكفار الذميين، والعُشر من المسلمين كضرائب مكوس [ما كان أشبه برسوم الجمارك اليوم].[٢]

وقد اتّضح أنَّ حكومة الكوفة كانت قويّةً ماليًّا في حدّ ذاتها، خاصّة عندما كانت الكوفة والبصرة يحكمهما شخصٌ واحدٌ، فتتضاعف هذه السلطة؛ لأنّ الوالي حينئذٍ بتولّيه لبيت المال لمدينتين كان له سلطة التنفيذ لأيّ طريقة، كما حدث في زمن زياد وابنه عبيد الله؛ حيث يدخل العراق من الخراج في زمن عبيد الله ما يقارب نحو (١٣٥) مليون درهم،[٣] واستطاع عبيد الله من خلال زيادة العطاءات ودفع الرشاوى لأشراف وشيوخ الكوفة تشجيعهم على القتال مع الإمام الحسين عليه السلام، كما قال مجمع بن عبد الله العائدي الكوفي عندما التحق بالإمام الحسين عليه السلام في كربلاء:

أمَّا الأَشرافُ فَقد أُعظِمَت رِشوَتُهُم، ومُلِئَت غَرائِرُهُم لِيُستَمالَ وُدُّهُم، وتُستَنزَلَ نَصائِحُهُم، فَهُم عَلَيكَ إلبٌ واحِدٌ.[٤]

١ . المصدر نفسه، ٢٢٢.

٢ . المصدر نفسه، ٢٢٠.

٣ . اجتهادي، أبو القاسم، بررسى وضع مالى و ماليه مسلمين از اغاز تا پايان دوران اموى: ١٣٧.

٤ . تاريخ الطبري: ٣٠٦/٤.

الثانية: مصادر دخل الناس

ويمكن بشكلٍ عامّ تقسيم طرق دخل الأهالي إلى قسمين: الأوّل: هو الكسب والعمل. والثاني: هو استلام العطاءات والأرزاق من حكومة الكوفة.

أوّلًا: الكسب والعمل

كان عمل الناس يتمثّل عادةً في ذلك الوقت في الزراعة والصناعة والتجارة، أو الأعمال الحكوميّة، مثل: الخدمة في الشرطة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار ارتباط أهالي الكوفة الوثيق بعطاء الحكومة، يبدو أنّهم لم يكونوا يعملون إلّا قليلًا، حتّى قيل: إنّ الموالي هم الذين كانوا يتولّون معظم الحرف في الكوفة، بل إنّ العرب لا يرون أنّ العمل في الحرف والصناعات لائقًا بشأنهم.[١]

ثانيًا: العطاءات والأرزاق

كان (العطاء) عبارة عن مبالغ نقديّة تُدفع من جانب الحكومة مرة أو عدة مرات في كلّ سنة، إلى الأفراد المقاتلين في هذه المدينة، كما كانت تُدفع إليهم الأرزاق التي كانت عبارة عن المساعدات العينية، مثل: التمر والقمح والشعير والزيت وغير ذلك، شهريًّا ودون مقابل.

والذي أسّس نظام العطاءات والأرزاق هو عمر بن الخطّاب، وذلك أنّه كان يعيّن للجند حقوقًا سنويّة من أجل الحيلولة دون انشغال الجنود في أعمال أُخرى، وكانت مقادير العطاءات والأرزاق تحكمها معايير خاصّة، كأن يكون الفرد صحابيًّا، أو بلحاظ عدد مرّات اشتراكه في الحروب، وما إلى ذلك، ويتمّ تأمين هذه الحقوق السنويّة بشكلٍ رئيس من الفتوح وخراج الأراضي المفتوحة حديثًا، وتقسّم على الأشخاص، بمبالغ تتراوح بين (٣٠٠) إلى (٢٠٠٠) درهم في السنة،[٢] ويطلق على حدّها الأقصى اسم

١ . الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة: ٨٢.

٢ . تاريخ الطبري: ١٠٨/٣؛ فتوح البلدان: ٤٣٨.

(شرف العطاء)، وكان يدفع إلى الأشخاص البارزين الذين يتمتّعون بصفات بارزة مثل الشجاعة المتميّزة والبسالة.[١]

وقد وافق الإمام علي عليه السلام في عهده على نظام العطاء، لكنّه ألغى امتيازات وضعها عمر لرفع الاختلاف في الرواتب، وأرسى المساواة الكاملة في العطاء، مما تسبّب في كثير من الاستياء.[٢]

سمة أخرى لدفع العطاء في عهد الإمام علي عليه السلام هو نوع تصرّف الإمام، فما كان أن وصلت الأموال إلى خزانة بيت المال، حتّى يوزّعها الإمام عليه السلام ولا يسمح بتراكم الأموال في الخزانة، كما ورد أنّه بعد تقسيم العطاء لثلاث مرات (خلال سنة واحدة)، وصل الكثير من المال من أصفهان، وطلب الإمام عليه السلام من الناس ورؤوس الأسباع أن يستلموا عطاءاتهم للمرّة الرابعة.[٣]

السمة الثالثة للعطاء، في عهده عليه السلام أنّه كان يدفع هذه الرواتب لخصومه، مثل الخوارج، طالما أنّهم لم يتّخذوا إجراءات عمليّة ضدّ الحكومة الإسلاميّة.[٤]

لكنّ في عهد معاوية، ألغي نظام الدفع هذا تمامًا وأعيد إنشاء نظام العطاء الطبقي، إلّا أنّ هذه المرّة لم تؤخذ معايير الصحبة للنبي صلى الله عليه وآله والأسبقيّة في الإسلام والمشاركة في الحروب وغيرها بعين الاعتبار، وبدلًا من ذلك، أصبح المعيار هو مدى التقرب من الجهاز الأموي والانصياع للحكومة،[٥] كما تمّ القضاء على عطاء الموالي، فقد أصدر معاوية أمرًا بدفع (١٥) درهمًا فقط لهم سنويًّا، الأمر الذي لم يتحقّق أبدًا،[٦] وبالتالي اضطرّ الموالي إلى الارتزاق من عملهم وكدّ يدهم.

١ . الحياه الاجتماعيّة: ٢٤٠؛ تنظيمات الجيش العربي: ٩٨.
٢ . نهج البلاغة، فيض الإسلام، الخطبة ١٢٦.
٣ . مروج الذهب: ٤٢١/٢.
٤ . تاريخ الطبري: ٥٣/٤.
٥ . تنظيمات الجيش العربي: ٩٢.
٦ . الحياة الاجتماعية: ٨٧.

وعلى هذا، فقد كان أهمّ مصادر الموارد الماليّة لأهل الكوفة وتأمين معايشهم بيد نظام الحكم ويعتمدون بشكلٍ كبيرٍ على العطاء والرزق، وقد كانت الحكومة تدرك جيّدًا هذا الضعف وتستغلّه استغلالًا كاملًا لتهديد الأهالي وترغيبهم.

وكانت جماعات المعارضة التي معظمها من الشيعة، تُهدَّد بقطع العطاء، كما رأينا أنَّ عبيد الله كيف هدّد العرفاء بقطع العطاء إن لم يخبروه بأسماء المعارضين.

وعندما حاصر مسلم بن عقيل عليه السلام بجيشه قصر عبيد الله بن زياد وألقى الضغط عليه، كانت إحدى حيل عبيد الله الناجحة تشجيع الناس من حول مسلم على زيادة العطاء في حالة التفرّق، والتهديد بقطعه في حالة استمرار الثورة، ما أدّى فورًا إلى تفرّقهم من حول مسلم،[1] كما تمكّن بالطريقة نفسها - أي: زيادة العطاء - أن يسيّر جيشًا عظيمًا من أهل الكوفة الذين كانت قلوبهم مع الإمام الحسين عليه السلام لقتله عليه السلام.[2]

وفي يوم عاشوراء عندما أراد الإمام الحسين عليه السلام إتمام الحجّة على الكوفيين، حاولوا منعه عليه السلام من إلقاء خطاب بإحداث ضجيج، لكنّه أخيرًا استطاع الإمام أن يأخذ بزمام الخطبة، حيث أشار إلى العطاء بوصفه عاملًا من عوامل خذلان الكوفيين له؛ حيث قال عليه السلام:

وكُلُّكُم عاصٍ لِأَمري، غَيرُ مُستَمِعٍ لِقَولي، قَدِ انخَزَلَت عَطِيّاتُكُم مِنَ الحَرامِ، ومُلِئَت بُطونُكُم مِنَ الحَرامِ، فَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِكُم، وَيلَكُم ألا تُنصِتونَ؟[3]

ربما لو كان مسلم قد استولى على خزانة الكوفة واستغلّها لصالح ثورته خلال إقامته حوالي ثلاثة أشهر في الكوفة (من ١٥ من رمضان إلى ٨ من ذي الحجة عام ٦٠ هـ)، لكان

١ . تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

٢ . حياه الإمام الحسين×: ٢/٤٥٣.

٣ . موسوعه كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ٤٢٢.

انتصاره مضمونًا، كما أنَّ المختار استطاع السيطرة على الكوفة في عام (٦٦) هـ بالاستيلاء على بيت المال وتوزيع (٩) ملايين درهم على أنصاره.[١]

لكنَّ نهضةَ الإمام الحسين عليه السلام لم تكن نهضة تنتصر بالقوة والمال؛ لأنّ الجماعة لو جمعتها الدراهم، غادرت الساحة عندما تكون مصالحها على المحك كما كان الحال مع المختار؛ حيث تخلّوا عنه بمجرّد مواجهة مصعب بن زبير وتركوه وحيدًا.

١ . تجارب الأمم، ١٣٨/٢.

نتيجة البحث

فيما يتعلّق بالأحداث التاريخيّة، لا سيّما وقائع صدر الإسلام، وخاصّة الأحداث المهمّة المتعلّقة بالأئمة المعصومين عليهم السلام، لا يجوز أن تكون الدراسة قائمة على النص والاكتفاء بعاملٍ خاصّ أو فكرةٍ معيّنة.

وقد تبيَّن من خلال هذا المقال أنَّ الكوفة، كإحدى أهم المدن الإسلاميّة، لعبت دورًا مهمًّا في وقوع حادثة عاشوراء المأساويّة الخالدة؛ لأنَّ دعوة أهل الكوفة كان لها سهم تاريخيٌّ كبير في حركة الإمام الحسين عليه السلام نحو هذه المدينة؛ فإنّ التحليل الأنثروبولوجي للمجتمع الكوفي قُبيل حركة عاشوراء، بما في ذلك تحديد كمّيّة ونوعيّة هذا المجتمع ودراسة تحليليّة للداعين والمراسلين للإمام الحسين عليه السلام ودراسة دوافعهم، يوضّح هذا الجانب من الواقع للقارئ الكريم، كما أنَّ الدراسة عن الشخصيّات المؤثّرة في واقعة كربلاء، والوضع الاقتصادي للناس آنذاك، وحتّى كيفيّة التقسيمات الإداريّة والسياسيّة، بالإضافة إلى علم النفس الاجتماعيّ، وعلم النفس التاريخيّ، هي بمثابة مَنارة عظيمة لتسليط الضوء على الزوايا الخفيّة لهذه الحادثة المؤلمة.

مصادر البحث

نهج البلاغة.
١. ابن منظور، محمد بن مكرَّم بن علي، لسان العرب، التعليق: علي شيري، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ ق.
٢. اجتهادي، أبو القاسم، "بررسى وضع مالى ومالیه مسلمین از آغاز تا پایان دوران اموى" [بالفارسية]، طهران، منشورات سروش، الطبعة الأولى، ١٣٦٣ش.
٣. البراقي النجفي، السيد حسين بن أحمد، تاريخ الكوفة، التحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم، بيروت، دار الأضواء، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ق.
٤. البلاذري، أبو الحسن، فتوح البلدان، التعليق: رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ق.
٥. جاسم الجنابي، خالد، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، بغداد، دار شؤون الثقافة العامة.
٦. جعيط، هشام، "كوفه پيدايش شهر اسلامى"[بالفارسية]، المترجم: أبو الحسن سرو قد مقدم، الطبعة الأولى، مشهد، مؤسسة الدراسات الإسلامية للعتبة الرضوية المقدسة، ١٣٧٢ش.
٧. جنابي، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، المقدمة: أحمد فكري، بغداد، المجمع العلمي العراقي، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ق.
٨. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩ق.
٩. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، التحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ق.
١٠. الدينوري، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة، التحقيق: علي شيري، قم، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، ١٣٧١ش.
١١. الزبيدي، محمدحسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، بغداد، جامعة بغداد، ١٣٨٩ هـ.
١٢. زكي صفوت، أحمد، جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، مصر، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ق.
١٣. زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، بغداد، جامعة بغداد، ١٣٨٩ق.

١٤. شريف القرشي، باقر، حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، قم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٣٩٧ق.
١٥. شريفي، محمود وآخرون، معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام التابعة لمكتب الإعلام الإسلامي، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، قم، دار المعروف، الطبعة الأولى، ١٤١٥ق.
١٦. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٢ هـ
١٧. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
١٨. عابدين، محمد علي، الدوافع الذاتيّة لأنصار الحسين عليه السلام، قم، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ ق.
١٩. عابدين، محمد علي، حياة سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل، ترجمه إلى الفارسيّة: سيد حسن إسلامي، قم، مكتب الانتشارات الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٣٧٢ش.
٢٠. عمر فوزي، فاروق، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلاميّة، بغداد، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ ق.
٢١. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، صحّحه: محمد باقر بهبودي، طهران، المكتبة الإسلاميّة.
٢٢. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، التحقيق: عبدالحميد محمد، محيي الدين، بيروت، دار المعرفة.
٢٣. مسكوية الرازي، أبو علي، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، التحقيق: أبو القاسم إمامي، طهران، دار سروش للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٦٦ش.
٢٤. مقرّم، عبد الرزاق موسوي، مقتل الحسين عليه السلام، [قم]، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩ق.